

ملاحم الأصالة والتميز في تراجم لسان الدين بن الخطيب

أ. محمد عزلاوي

جامعة زيان عاشور بالحلقة

تمهيد:

ابن الخطيب من أشهر أعلام الأندلس، في القرن الثامن للهجرة، على عهد دولة بني الأحمر في غرناطة، وكان محل اهتمام الدارسين قديما وحديثا، نظرا لأهمية مركزه، وتعدد مواهبه، وكثرة إنتاجه وتنوعه، حيث ترك مصنفات في التاريخ، والفلسفة، والطب، والفقه، والحديث. وفي الأدب ألف في كل الفنون، النثرية والشعرية، حيث ترك طائفة كبيرة من الرسائل، والرحلات، والمقامات، والوصايا. وكان له إسهام في التراجم، إذ عرّف بمئات من أعلام عصره، وقبل عصره، وخاصة في كتبه: الإحاطة في أخبار غرناطة، والكتيبة الكامنة في منلقيناه من شعراء المئة الثامنة، والتاج المحلي، والإكليل الزاهر، وعائد الصلة، وأعمال الأعلام،...، وغيرها. ولابن الخطيب منهج متميز، في هذا اللون الأدبي، يختلف عن كثير من كتّاب التراجم في المشرق والمغرب.

أدب التراجم في التراث العربي:

التراجم هي إحدى الفنون النثرية، التي تأخذ مادتها من التاريخ، والمواقف الإنسانية وتجارب الحياة المتعلقة بالبشر، وقد عرفت الأمم القديمة هذا اللون من الأدب، لأنها حفلت بتسجيل ذكريات إبطالها وأعيانها ونبلاتها، ومشهوريتها، وكان هذا التسجيل في صور مختلفة كتابيا في المعابد، وعلى الصخور والحجارة، والمعادن المختلفة، وشفويا توارثه الرواة وعامة الناس، ورددوه في مجاهم وأحاديثهم، ولهجوا بذكريات أشخاص عاشوا بينهم، وخلفوا مآثر تُذكر، وأخبارا تُروى. وقد عرف الرومان والإغريق فن التراجم، وكتبوا عن عظمائهم وأبطالهم.⁽²⁹⁰⁾ وأما التراث الإسلامي، فقد حفل بهذا الأدب أيما احتفال، وترجم للأعلام على مختلف الفئات والبيئات والإعصار، في وقت متقدم من بداية عهد التدوين "والحق أن العرب والمسلمين قد

⁽²⁹⁰⁾ علي بن محمد، ابن بسام وكتاب الذخيرة، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989)، ص24.

عنوا أشدّ العناية بتراجم رجالهم، وطبقات علمائهم، وتوفروا على ذلك الفن وافتنوا في تبويبه وترتيبه، حتى بلغت العناية والتحفي أن ألفوا في تواريخ البلدان". (291)

وقد كانت الحاجة إلى العناية بالأعلام ماسة في صدر الدعوة الإسلامية، وكان أكثرها أهمية، سيرة الرسول ﷺ، ثم أعلام الصحابة والتابعين ورجال الحديث والرواة، ووضعت لذلك كتب في السير والطبقات، أهمها:

- سيرة الرسول ﷺ لابن هشام الكلبي (ت231هـ)

- وتاريخ البخاري (ت256هـ)

- وطبقات الصحابة لابن سعد (ت230هـ).

- وفتوح الشام للواقدي (ت207هـ).

- وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت231هـ).

ثم أفاض الكتاب في تراجم الأعلام من الصحابة، والتابعين، والعلماء والأدباء، ولم يتركوا أهل فن أو علم إلا ترجموا لهم وعرفوا بهم، وربما قيّدوهم في مجموعات عرفت فيما بعد بالطبقات، حتى شملت التراجم خاصة الناس وعامتهم، والرجال والنساء، بل هناك من كتب في أنساب الخيل. (292)

واتخذت التراجم طرائق متعددة، فاتجه بعض المترجمين فوضع أسماء الأعلام وفق نسق عام، يلتقي فيه أعلام المترجمين على اختلاف مشاربهم، ومنازلهم، وقد عرف ذلك بالتراجم العامة، وهناك من وضع الأعلام وفق ما اشتركوا فيه من علم أو تخصص أو وظيفة واحدة، كالقضاة، والنحاة والأطباء، وهي كما يقول مصطفى الشكعة: "فكان أن نشأت أنماط من الكتب تتولى الترجمة لأعيان العلماء، وعظماء الشخصيات، وكان أهم تلك جميعا كتب الطبقات وكتب التراجم". (293)

والتراجم العامة، هي التي لا تخص فئة معينة، وإنما تترجم لكل الأعيان ويجمع فيها الملوك والسلاطين، والوزراء والقادة، والعلماء، والفقهاء، والنحاة، والشعراء، والخطباء، والمتصوفة والأطباء، وكل شخصية يمكن إطلاق صفة "عين" عليها.

(291) محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، ط3، (القاهرة: دار المعارف)، ص05.

(292) مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب، ط12، (بيروت: دار العلم للملايين، 2007)،

ص106.

(293) مصطفى الشكعة، المرجع نفسه، ص443.

بينما كتب الطبقات، فهي تنظم الأعلام في طبقات وفق علم واحد، تخصصوا فيه أو طبقة اشتركوا بها، أو مذهب اعتنقوه، فنجد من ذلك طبقات الصحابة، والمحدثين والفقهاء والحفاظ والنحاة والشعراء والمقرئين وغير هذه الأصناف. (294)

وفي التراث العربي أنماط أخرى من التراجم، ومضان أخرى لمعرفة الأعلام، وحفظ الأسماء، من ذلك كتب تراجم البلدان، وفيها يتناول كاتبها البلد، وتاريخ نشأته وعمرانه وتخطيطه، وتنظيمه السياسي والإداري، وطبيعة سكانه وصولاً إلى ترجمة أعلامه وأعيانه، على اختلاف منازلهم من البلد، وقد نجد تراجم الأعلام في كتب التاريخ العام، وكتب الشروح اللغوية والأدبية، وهناك من يفرد الكتاب الواحد للترجمة للشخصية الواحدة، مما قد يصح إطلاق الترجمة الفردية على ذلك النوع. (295)

طرائق المترجمين في ترتيب الأعلام:

اختلف كتّاب التراجم والمؤرخون في ترتيب أسماء المترجم لهم، ولكنهم لا يكادون يخرجون عن الطرائق التالية:

1- الترتيب على القرون والعصور: وذلك بالحديث عن وفيات وأعيان كل قرن، والتعرض لجوانب من سيرهم وآثارهم.

- مثل البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (ت1250هـ).

- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ت902هـ).

- الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي (ت1061هـ).

2- الترتيب على السنوات: وهذا اللون يرتب الأعلام حسب سني الوفيات، ثم يخوض في الحديث

عن أعمال هؤلاء، ويذكر نتفا من تراجمهم وأخبارهم، مثل:

- عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي (ت764هـ)

- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (ت1089هـ).

- البداية والنهاية لابن كثير.

(294) علي بن محمد، المرجع السابق، ص97.

(295) من التراجم التي تختص بالترجمة الفردية، مثلما كتبه أبو الوليد بن الأحمري عن ابن زمرك، وأبي الحسن النباهي، وما كتبه ابن مرزوق، عن أبي الحسن المريني، وهو كثير في التراث.

3- الترتيب على الأسماء: من الكتاب من لم يهتم بترتيب الأعلام، لا على القرون ولا على السنين، وإنما يرتبهم على حسب حروف المعجم، وهذا النوع لا يراعى الترتيب الزمني، وإنما يجعل الأسبقية لأول الحرف من الأسماء، مثل:

- وفيات الأعيان لابن خلكان (ت681هـ).

- فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي (ت764هـ).

4- تواريخ البلدان: وهذا اللون من الكتب من جهة ترتيب أعلامه لا يخرج عن كتب التراجم العامة، لكونه يجمع شخصيات البلد الواحد، على اختلاف وظائفهم واهتماماتهم وتخصصاتهم، ولكنه من جهة ثانية يختلف عن التراجم العامة، في عنايته بالجانب الطبيعي والجغرافي، والسياسي والإداري للبلد قبل أن ينتقل إلى أعلامه ومشاهيره، وقد يرتب هؤلاء على حسب منازلهم وأدوارهم في هذا البلد ابتداء بأولى الأمر من السلاطين، والملوك والوزراء والحجاب، ومرورا بالقضاة والعلماء والفقهاء، والمحدثين والأدباء والشعراء وانتهاء بالجواري والخدم.

التراجم في كتب التاريخ العام وكتب الشروح الأدبية واللغوية:

ثمة تراجم لأعلام ليسوا مقصودين في حد ذاتهم، لكن الكاتب قد يتعرض لهم أثناء عرض الحوادث التاريخية، أو أثناء الشرح لقاعدة نحوية أو بلاغية، أو شاهد شعري، وبالتالي هذا النمط من الأعلام لا يرتب بطريقة معينة، وإنما يتم الحديث عنه عند الحاجة إلى تفسير موقف أو شرح قضية، ونذكر على سبيل المثال في ذلك:

- كتاب تاريخ الإسلام للذهبي (ت854هـ).

- وحسن محاضرة للسيوطي (ت911هـ).

- وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباته (ت768هـ).

تراجم الأعلام في كتب المغاربة الأندلسيين:

كان لأهل الغرب الإسلامي عناية فائقة بحياة الأعلام، والشخصيات من الأعيان والعلماء، فتناولوا أعيان المذاهب والمحدثين والأدباء والمتصوفة والأشراف والأولياء، وعامة الأعلام، فنذكر في بلاد المغرب، والجزائر خاصة.

- أخبار الأئمة الرستميين، ابن الصغير.
 - سير مشايخ المغرب، لأبي الربيع الوساني.
 - سير الأئمة وأخبارهم، لأبي زكريا الورجلاني (ت471هـ).
 - طبقات المشايخ في المغرب، لأبي العباس الدرجيني (ت670هـ).
- وهذه المؤلفات كلها في رجال المذهب الإباضي، ومن كتب المذهب المالكي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك للقاضي عياض (ت544هـ).
- وأما في تراجم المحدثين، فنجد الوفيات لابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ)، وعنوان الدراية لأبي العباس الغبريني (ت714هـ).
 - الفهرسة المباركة، لابن غازي المكناسي (ت704هـ).
 - البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، لابن مريم. (في التصوف)
 - وفي تراجم الأدباء، نجد: نثير فرائد الجمان، لابن الأحمر (ت807هـ).
- وأما أهل الأندلس فلهم في المصنفات في التراجم، ما يضاها ما كتب في هذا الفن في الأدب المشرقي، فكانت لهم سلسلة كاملة تترجم للأعلام يستدرك فيها بعض على بعض، ويضيف إليها المتأخر ما أغفله المتقدم، وعرف عندهم ما يسمى الاستدراك، والتذليل، والإضافات ما يجعل تعدد كتابة التراجم مدرسة رائده منسجمة حتى نهاية الوجود العربي، في الأندلس ومن هذه السلسلة نذكر:

- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (ت403هـ).
- جذوة المقتبس للحميدي (ت488هـ).
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام (ت542هـ).
- بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس للضبي، (ت599هـ).
- والصلة لابن بشكوال (ت578هـ).
- والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (ت657هـ).
- والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لعبد الملك المراكشي (ت703هـ).

- المطرب في أشعار أهل المغرب، لابن دحية (ت633هـ).

وهكذا لا تكاد تحفل أمة بتاريخ رجالها ونسائها، وترجمة أعلامها كالأمة العربية الإسلامية، التي امتلأت مكنتها، بمئات المصنفات والمعاجم، التي تترجم للأعلام في مختلف الأقاليم الإسلامية، في المشرق والمغرب، ولا يسع المجال في هذا العرض إلى الإحاطة بأسماء هذه المصنفات، وما ذكرناه كان للإشارة والتمثيل، والتدليل على عناية المؤلفين القدامى، بهذا اللون من الكتابة، مما يجعل آلاف الأعلام تحت الضوء في مختلف ألوان المعرفة الإنسانية. (296)

لسان الدين بن الخطيب وكتابة التراجم.

لا أدري لماذا أغفل الدارسون قديما وحديثا، الحديث عن عناية ابن الخطيب بهذا الجانب في حياة الأعلام، في عصره وقبل عصره، ولماذا أغفل الحديث عن إسهامه في تدوين مئات التراجم، لأعلام لا توجد لهم تراجم إلا في كتاباته؟ وقبل الخوض في استجلاء هذا الجانب عند ابن الخطيب، ولماذا اعتنى الدارسون بجوانب أخرى وهي كثيرة ومثيرة للإقرار بعبقريته ومقدرته العلمية والأدبية، يجدر بنا أن نتعرف على ابن الخطيب، ونستعرض مناحي من حياته لدواعي علمية ومنهجية، رغم كثرة المصادر والمراجع التي تعنى بحياته.

وهو الذي تناوله أعلام عصره وبعد عصره، ولا يكاد يخلو مصدر قديم مشرقى أو مغربي في الآداب أو التراجم أو التاريخ إلا أشاد بذكره، وهو كما يقول عنه "أحمد بابا" التنبكي "الإمام الفذ صاحب الفنون المتنوعة والتواليف العجيبة ذو الوزارتين" (297)، وهو الذي وصفه "ابن الأحمر" صاحب "نثر فرائد الجمال" بأنه كاتب الأرض إلى يوم العرض" (298)، ويترجم له المقري في الجزء الخامس من نفع الطبيب "هو الوزير الشهير الكبير لسان الدين الطائر الصيت في المغرب والمشرق .. المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب، ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومصنفاته تخر عن ذلك (299)

(296) ينظر: المصادر العربية والمعرية، ماهر حمادة، ص137 وما بعدها.

(297) أحمد بابا التنبكي، كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديقاج، تحق: محمد مطيع، (المغرب، وزارة الأوقاف، 2000)،

ج2، ص201.

(298) ابن الأحمر، نثر فرائد الجمال، تحق: محمد رضوان ذا الداية، ط1، (بيروت: عالم الكتب، 1986)، ص58.

(299) أحمد المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحق: إحسان عباس، (بيروت، دار صادر، 1968) ن ج5،

ص07.

لا تكاد تختلف جميع المصادر والمراجع القديمة في ترجمته ولا تاريخ مولده، ونشأته ولا في مؤلفاته، ولا في عبقريته وموسوعية ثقافته ومعارفه المتنوعة، وقد ترجم لنفسه في آخر كتاب الإحاطة.⁽³⁰⁰⁾

فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني⁽³⁰¹⁾، الملقب بابن الخطيب والمعروف بلسان الدين، وكان مولده بمدينة "لوشة" 713هـ/1313م، فنشأ بها وأخذ العلم عن شيوخها، وانتقل إلى غرناطة مع والده الذي كان يعمل كاتباً لدى ملوك بني الأحمر، فتجلى نبوغه وبرزت مواهبه الأدبية والعلمية، وقربه أبو الحسن ابن الجياب، وجعله كاتباً لديه واستفاد هذا الشاب المتألق المزود بالمعرفة والطموح، وترقى في المراتب حتى بلغ الوزارة بعد وفاة شيخه ابن الجياب 749هـ، صار كاتباً ووزيراً لدى السلطان أبي الحجاج يوسف الثاني، ولما مات هذا السلطان وخلفه ولده الغني بالله، أبقى ابن الخطيب في الوزارة، وزاد من منزلته وأطلق يده في التصرف في شؤون الدولة، وقد وصف ابن الخطيب هذه الخطوة في كتابه الإحاطة: "فقلدني السلطان سرّه ولما يجتمع الشباب ويستكمل السن معززة بالقيادة ورسوم الوزارة"⁽³⁰²⁾، ودامت هذه الحال ردحا من الزمن وابن الخطيب الأمر الناهي المسير لدواليب الدولة يولّي ويعزل، ويستقبل الوفود، ويقوم بالسفارات ويتصرف في النفقات حتى نفقة السلطان وأهله، ولكن هذه الحال وهذا الصفاء لم يدم لابن الخطيب ولا للسلطان، إذ حدث انقلاب إسماعيل بن الحجاج على أخيه الغني بالله، الذي فرّ من القصر، وبقي ابن الخطيب يصانع السلطان الجديد، غير أن إسماعيل هذا لم يطمأن إلى ابن الخطيب، وساورته الشكوك، فأراد الفتك به لولا شفاعته سلطان المغرب، لكن مع ذلك خرب قصره وصودرت أملاكه، وبيعت بأجنس الأثمان في الأسواق⁽³⁰³⁾، ولحق ابن الخطيب بسلطانه المخلوع بالمغرب في كفالة السلطة المرينية وعلى عهد "أبي عنان"، وكان ذلك حوالي سنة 760هـ، وانقطع ابن الخطيب، للتأليف والزهد، ومدح "بني مرين" وزيارة المدن المغربية، وقد توفيت زوجته هناك واستقر بمدينة "سلا"، وظن أن لا رجوع إلى الأندلس، بل كان يفكر في العبور إلى المشرق وزيارة مكة المكرمة، وقد كره أحوال الحكم والسياسة، وبعد حوالي 3 سنين في

⁽³⁰⁰⁾ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحق: حسن يوسف الطويل، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003).

ج4، ص373 وما بعدها.

⁽³⁰¹⁾ السلماني نسبة إلى سلمان باليمن، ينظر كتاب السحر والشعر لابن الخطيب تحق: محمد كمال شبانة، (القاهرة: دار

الفضيلة)، ص23 وما بعدها.

⁽³⁰²⁾ ابن الخطيب الإحاطة، تحق: حسن يوسف الطويل، ص377.

⁽³⁰³⁾ ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص377.

المغرب، حدثت ثورة في الأندلس في غرناطة، وأطيح بالسلطان الغاصب للعرش، واستدعى الغني بالله إلى ملكه، فطلب من ابن الخطيب اللحاق به واستعادة وزارته، واستجاب ابن الخطيب بعد تردد وأمسك الوزارة مرة ثانية سنة 763هـ، ويبدو أن الرجل أراد في عهده الثانية -وقد تقدمت به السن وذاق ألم النكبة- أن يعيش حياة الاعتدال والتقشف والزهد وترك اللهو وملذات الحياة، فتكالب عليه خصومه، الذين قويت شوكتهم، وكثر عددهم، وصاروا يشكّلون قوة ضاغطة، تفكر في إزاحة ابن الخطيب، والإيقاع بينه وبين سلطانه وتشكيكه في ولائه وإخلاصه، ويحس الوزير لسان الدين بهذا الأمر، ويعرف ذلك من خلال النظرات الشذراء الحاقدة، فيعش أزيمة نفسية محتدمة⁽³⁰⁴⁾، ويقتنع أن هؤلاء موقعون به لا محالة فصار يفكر جدًّا في الانسحاب، ولكن بالطريقة التي لا تكلفه ثمنًا باهضًا من حياته، ولكن الأقدار كانت تجري عكس ما كان يأمل ويريد، وفعلا خرج ابن الخطيب في اتجاه مضيق جبل طارق، مدعياً أنه يتفقد الثغور الجنوبية للمملكة، وفي الحقيقة كان قد اتفق مع السلطة في المغرب على طلب اللجوء، وعبر فعلاً إلى المغرب ولحق بالسلطان أبي سالم، وتأكد خبر فرار الوزير، وامتأً السلطان غيظًا، وزاد خصومه في تأكيد التهم، وإقناع الغني بالله بالخيانة العظمى من قبل وزيره، فأرسل وفداً إلى سلطان المغرب يطلب فيه إعادة ابن الخطيب إلى الأندلس لمحاكمته، لكن أبا سالم رفض ذلك قائلاً لهم "لماذا لم تحاكموه عندما كان عندكم"⁽³⁰⁵⁾، ولكن السلطان ظل يلحّ على تسليم ابن الخطيب، ومات سلطان المغرب وخلفه السلطان عبد العزيز الذي ربطته علاقات سياسية وولاء مع الغني بالله، وأحس ابن الخطيب بخطورة الأمر، وقد راسل السلطان من قبل يشرح له سبب ترك الوزارة، ولكن السلطان لم يقتنع بمبرراته، كما راسل ابن خلدون ليتدخل في الأمر، ويتوسط له لدى السلطان، لعلاقة ابن خلدون الطيبة بالغني بالله، لكن خصوم ابن الخطيب، أوعزوا للسلطان بأن ابن خلدون كان يسعى في خلاص صديقه، فلم يؤذن له بدخول الأندلس⁽³⁰⁶⁾.

وفعلاً نجح أعداء ابن الخطيب وعبر ابن زمرك في وفد من الأندلس، وحاكموا ابن الخطيب هناك محاكمة جائرة كالوا فيها من التهم ما يجعل دمه مباحاً، منها الخيانة والغدر والزندقة، واعتقاد

⁽³⁰⁴⁾ ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، فيمن لقيناه من شعراء المئة الثامنة، تحق: إحسان عباس، (بيروت، دار الثقافة، 1963م)، ص8، 9.

⁽³⁰⁵⁾ ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص12.

⁽³⁰⁶⁾ ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحق: محمد بن تاويت الطنجي (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2003)، ص227.

أراء الفلاسفة، والإساءة إلى النبي والتدخل في القضاء والإغراق في الملاحية والملاذات، ولم يسمحوا له بالدفاع عن نفسه، وادخل السجن، وبالليل اقتحم عليه نفر من أعوان سلطان الأندلس وبعض العامة من الناس السجن فخنقوه، ولم يكتفوا بذلك بل أخرجوه من قبره واحرقوا جثته، حتى اسودت بشرته، وشعره ثم أعيدت الجثة إلى القبر، وكان من محن ابن الخطيب قبل ذلك أن أحرقت كتبه في الساحة العامة بغرناطة. (307)

هذا ما آلت نهاية ابن الخطيب، وهي نهاية لا تليق برجل قدم للمسلمين، أفضل ما وصل إليه فكرة وعبقريته في العلوم الشرعية والعقلية والأدب والفقهاء، وهو الذي ألف كتابا كاملا في حب الرسول ﷺ، وهو الذي ألف في الفقه والحديث والمقاصد، وهو الذي عبر بنفسه إلى المغرب يطلب نجدة "بني مرين" لحماية أرض المسلمين بالأندلس، ولكنه التنافس على السلطة والتعصب، والحدود والجاه هو الذي أودى بحياته الرجل، "وكان مقتل ابن الخطيب مؤشرا على قرب نهاية عصر الإبداع في الثقافة الأندلسية والمغربية، وقد انقطعت مع انقطاع أنفاسه شمعة مضيئة في مجال المعرفة الإسلامية، واختفت شخصية قلما جاد بما الزمان، فكان عالما بارزا في الإدارة وعلم السياسة، وأديبا فذا في نظم الشعر وصياغة النثر، ومؤرخا محققا، جمع دقة المعرفة وفخامة الأسلوب وموسوعية الرؤيا، فاستحق بجدارة لقب "ذي الوزارتين" بجمعه السيف والقلم وذو العمرين لقضائه النهار في الإدارة والحكم، والليل في الدرس والقراءة" (308)، لأنه أصيب بداء الأرق، فكان لا ينام ليله، ولذلك استغل هذا الفراغ في تسويد الصحائف والتأليف، وهناك لقب آخر سمي به وهو "ذو القبرين"، لأنه دفن مثلما ذكرنا، ثم أخرج وأعيد دفنه مرة أخرى بعد التمثيل بجثته. مؤلفات لسان الدين بن الخطيب.

رغم الحوادث المتعاقبة على التراث الأندلسي بشكل عام، وإعمال ابن الخطيب بشكل خاص، حوادث الاتلاف والحرق والسطو، والضياع، وعامل المدة الزمنية، إلا أن كثيرا من المحققين والدارسين في مطلع العصر الحديث، قاموا بجهود معتبرة في إنقاذ هذا التراث عامة، وجهود ابن الخطيب خاصة، فاضطلع كبار بتحقيق أعماله، وما وجد منها في المكتبات الإسلامية والغربية، نذكر من العرب عبد الله عنان، وإحسان عباس، ومحمد كمال شبانة، وعبد العزيز الأهواني، ومحمد رضوان الداية، ومن المستشرقين ليفي بروفنسال، وبروكلمان وغيرهما، وانتشلوا

(307) ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط1، (بيروت: دار الغرب الإسلامي،

1999م)، ص181-196.

(308) ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص167.

تلك المصنفات من برائن النسيان والضياع، فكان أن طبعت أهم مؤلفات ابن الخطيب، ونظرا لكثرة مؤلفاته وتعدد أبحاثها، فإنه يمكن حصر أعماله في أربعة اتجاهات أساسية، تُبرز سعة إطلاع الرجل وتنوع مواهبه، ونبوغه، في مختلف المعارف عقليها ونقليها، محليها وعالميها، وهذه الأقسام الكبرى هي:

(أ) مؤلفاته في اللغة والأدب، ونذكر منها:

- ديوان الصيب الجهم والماضي الكهام وهو (ديوان شعر).

- جيش التوشيح، (وهو مختارات من الموشحات لمجموعة من كبار الوشاحين).

- السحر والشعر، (وهو مختارات شعرية).

- تافه من جم ونقطه من يم (شعر).

- الدرر الفاخرة واللحج الزاخرة (شعر).

- فئات الخوان وسقط الصوان (رسالة شعرية).

- النفاية بعد الكفاية (أدب)

- المنح الغريب في الفتح القريب (أدب)

- ريحانة الكتاب ونجعة المتاب، (وهو طائفه من الرسائل).

(ب) التصوف والفلسفة وأصول الفقه والسياسية: ونذكر منها:

- الحلل المرقومة في اللع المنظومة، وهو أرجوزة في ألف بيت لخص فيها أصول الفقه لأبي إسحاق

الشيرازي (ت476هـ)

- روضة التعريف بالحب الشريف (في التصوف).

- استنزال اللطف الموجود في سر الخلق، (وهي رسالة صغيرة في التصوف).

- تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة، (وهو أرجوزة في نحو ستمائة بيت في فن السياسة وتولي أمر

المسلمين).

- الإشارة إلى أدب الوزارة. (في السياسة)

(ج) المعارف الطبية:

- رسالة الطاعون، التي سماها مقنعه السائل عن المرض الهائل، وهذا وباء ساد العالم الإسلامي خلال

القرن الثامن، وأودى بحياة خلق كثير وخاصة العلماء منهم.

- الأرجوزة المعلومة، وهي منظومة في علاج السموم، ونظام الأغذية وخصائص الأطعمة ومنافعها

ومضارها، ويبلغ أبيات هذه المنظومة مائتا بيت مرتبة على حروف المعجم.

- كتاب عمل من طب لمن حبّ، تحدث فيه عن الأمراض المختلفة.
- الوصول لحفظ الصحة في الفصول.
- اليوسفي في الطب.
- رسالة تكوين الجنين.
- البيطرة والبيزرة.
- وأكثر هذا المؤلفات الطبية يُعد في حكم المفقود.
- (د) التاريخ والبلدان والرحلات والتراجم:
 - رقم الحلل في نظم الدول.
 - طرفة العصر عن تاريخ دولة بني نصر (وهو مختصر للملك بن نصر).
 - التاج المحلي في مساجلة القدح المعلى (وهو في التراجم والتاريخ).
 - الإكليل الزاهر فما فصل نظم التاج من الجواهر، (في التراجم).
 - نفاضة الجراب في علاقه الاغتراب (في فن الرحلة والمذكرات الشخصية)، وقد سجل فيه مشاهداته في المغرب بين 760-763هـ.
 - خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف (في فن الرحلات).
 - كناسة الدكان بعد انتقال السكان، (وثائق تاريخية).
 - مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، (في التوثيق).
 - أوصاف الناس في التواريخ والصلوات (في التراجم).
 - الكتيبة الكامنة في شعراء المئة الثامنة (في التراجم).
 - عائد الصلة (في التراجم).
 - بستان الدول في التاريخ السياسي، والاجتماع والحرف والصناعات.
 - المباخر الطبية والمفاخر الخطيبية (تراجم).
- وهذه المجموعة مطبوعة، عدا بستان الدول، فيعد في عداد المفقود.
- ملاحح المنهج الخطيب في الترجمة.

إن المتأمل لنتاج ابن الخطيب المطبوع والمخطوط والمفقود، لا يسعه إلا أن يقر بأن الرجل على سعة من الإطلاع وتنوع المواهب، والفهم العميق لمشكلات عصره، وموقفه منها، وتأثيره فيها وتأثره بها، وأن هذا النتاج في تنوعه قد نال قدرا من اهتمام الدارسين في مطلع العصر الحديث، من قبل عرب وأحباب فعرضت بعض الجوانب من شخصيته ومواهبه في غزارة التأليف، ورقسي

الأسلوب، وتنوع المعارف ولكن ابن الخطيب، لم يُعالج في حدود الاختصاص في الجوانب الواحدة إلا نادرا - في حدود علمي - فلم يعالج فن الرسالة ولا فن الرحلة ولا الخطابة، ولا الطب ولا غيرها من الفنون في إطار خاص، وفي بحث معمق اللهم إلا مقالات هنا وهناك، ومن ثم قد كان يجدر أن يوقف على جوانب هذه العبقرية، جانبا جانبا، وأن استخراج ما فيها من ملامح العظمة والتفرد والسبق والأصالة، ولذا فإنني أشيد بما كتبه "عبد الله الترغي"⁽³⁰⁹⁾ عن فن أدبي عند ابن الخطيب، قد برع فيه وعلا كعبه في كتابته، ولم يعره الدارسون اهتماما كبيرا، وهو أدب التراجم عنده هذه الشخصية، إذ كان للسان الدين ابن الخطيب، عناية خاصة في تراجم الأعلام، سواء الأدباء منهم أو غيرهم، من رجال السياسة والحرب ومشاهير رجال الأندلس، وقد أخذت حيزا لا بأس به من نتاجه، حُصَّ بعضها بمؤلفات مستقلة مثل: الكتيبة الكامنة، والتاج المحلّي، والأكليل الزاهر والإحاطة في أخبار غرناطة، ...، وغيرها، وبث بعضها الآخر ضمن مؤلفاته الأخرى ...، ولا سيما نفاضة الجراب.⁽³¹⁰⁾

إن المستقرئ لمؤلفات ابن الخطيب في أدب التراجم يجد أن جميعها يسير في اتجاهين، ويمثل شكلين من التراجم:

- تراجم عامة: وفيها يترجم الكاتب إلى أعلام وأشخاص لا يجمع بينهم، إلا كونهم من بلد واحد أو كونهم نالوا من الشهرة ما جعلهم يسحقون الإشادة والذكر.

وهؤلاء يلتقي فيهم الملوك مع الوزراء والكتاب والقادة والعلماء والأدباء وكل شخص قد يطلق عليه صفة عين أو علم، وإذا كان الكتاب من تراجم البلدان، فيذكر المؤلف البلد وأحواله الجغرافية والسياسة والاجتماعية، ثم يُعرض لأعلامه بالترجمة على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم.

- تراجم خاصة: وهي ما يعرف بكتب الطبقات، ويمثلها طائفة من مؤلفات ابن الخطيب، وهي تعنى بالترجمة للأعلام الذين يشتركون في اختصاص واحد، ويشكّلون طبقة واحدة، وقد أطلق بعض الدارسين على النمط الأول، الطريقة الطولية وتمثلها مؤلفات لسان الدين.

- عائد الصلة.

- طرفه العصر.

⁽³⁰⁹⁾ لعبد الله المرابط الترغي، اهتمام بابن الخطيب، والترجمة عنده، وخاصة في مجلة كلية الآداب بتطوان، ينظر: مجلة الفيصل

العددان: 377-378، السنة 2007، ص139.

⁽³¹⁰⁾ كتاب نفاضة الجراب، كتاب ألفه ابن الخطيب، أثناء فترة منفاه بالمغرب في المرة الأولى، وهو في أدب الرحلة

والمذكرات الشخصية، حققه أحمد مختار العبادي بضياح القسم الأول منه، ونشرته، دار الكتاب بالقاهرة.

- للمحة البدرية.
- أعمال الأعلام.
- الإحاطة في أخبار غرناطة
- والنمط الثاني: أطلق عليه الطريقة العرضية، وتمثله من الكتب:
- التاج المحلي في مساجلة القدح المعلى.
- الإكليل الزاهر في ما فصل عند نظم التاج من الجواهر.
- وجيش التوشيح.
- النفاية بعد الكفاية.
- والمباخر الطبية في المفاخر الخطيبية.
- الكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء المئة الثامنة.

ولما كانت هذه المؤلفات في التراجم لا تخرج عن نمطين أساسيين، فإنه يمكن التعويل على اعتماد كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، كنموذج للصنف الأول، وكتاب الكتيبة الكامنة كنموذج للصنف الثاني.

وكتاب الإحاطة، كتاب موسوعي ضخم، يُعد من أشهر مؤلفات ابن الخطيب في التراجم والتاريخ والجغرافية عامة، وأبعدها مدى وتأثيراً في الدلالة على طريقته ومنهجه، وقد تحدث فيه عن أصناف مختلفة من ملوك، وأمراء، وأعيان، وكبراء، ومقربين، وعلماء، ومغنين، وفقهاء، وكتاب، وشعراء، وغيرهم، كما أن كتاب الإحاطة يقوم على منهج رئيس من مناهج الترجمة، وهو تناول الشخصيات والأعلام على طريقة مصر من الأمصار، أو قطر من الأقطار، وهو غرناطة عاصمة الملك في الأندلس على عهد المؤلف، وقد قسمه ابن الخطيب إلى قسمين:

- أ) التراجم البلدانية: وسماه في "حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمسكن".
- ب) التراجم الإنسانية: وسماه في "حلى الزائر والقاطن والمتحرك والسكن".

فقد تحدث ابن الخطيب في القسم الأول، عن البيئة الجغرافية، وحدد معالمها، ووصف غرناطة وحدودها وطبيعة أرضها ومناخها وغلاتها وأقسامها. والقسم الثاني من الكتاب تناول فيه تراجم الأعلام على اختلاف منازلهم ومشاربهم، متحدثاً عن سكان غرناطة مفرقا إياهم بين السكان الأصليين القاطنين بها مولداً ونشأة، والوافدين عليها أو الزائرين لها، والراجلين عنها في مختلف بقاع الأرض.

وقد رتب ابن الخطيب هذا الكتاب الفخيم، الذي يضم مئات التراجم لأعلام غرناطة، ترتيباً على الحروف وجعل تحت الحرف الواحد ترتيباً، حسب وظائف هؤلاء الأعلام فبدأ بذكر الملوك والأمراء، ثم الأعيان والكبراء ثم الفضلاء والقضاة والمقرئين، ثم ذكر محدثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء، والكتاب والشعراء، ثم العمال وختم بالزهاد والصلحاء.

وقد كان تقسيم ابن الخطيب لفئات الأعلام، إضافة إلى تقسيمهم السابق حسب الأسماء والوظائف، فقسمهم تقسيماً خارجياً بين أعلام غرناطة الأصلاء والطارئين عليها، كونها عاصمة الخلافة الإسلامية في الأندلس والمغرب، والجزء المتبقي من بلاد المسلمين، وكونها محط إقبال لكثير من العلماء والرحالة والزائرين "وما من شك في أن الكاتب استطاع بهذا التقسيم الشكلي الخارجي أن يطلعنا على مظهر من مظاهر الأصالة في هذا الفن، إذ صور من خلاله الحياة الفكرية في الحضرة [غرناطة] التي كانت في حل مراحل تاريخها وبخاصة في عهد المؤلف، عاصمة ثقافة تروج بمختلف صنوف الفكر والأدب، وتستقطب الكثير من المبرزين في العلوم والفنون، ليس في المدن الأندلسية المحاورة لغرناطة، فحسب بل في العدة المغربية وإفريقية وتونس". (311)

وكتاب الإحاطة، يعد وثيقة تاريخية هامة ومصدراً لتراجم الأعلام، ولولا ابن الخطيب، ولولا الإحاطة لظلوا في طي النسيان نظراً لإغفال المصادر الأخرى لكثير من هؤلاء الأعلام، إضافة إلى مجموعة النماذج الواردة فيه من الشعر والنثر والأقوال، وهو يبرز مدى ذوق ابن الخطيب وحسه الأدبي "وكان يكشف بحسه الأدبي الشفاف عن بعض الجوانب الأدبية المضيئة من نتاج أصحاب التراجم، فيذكر أفضل ما أثر عنهم من المنظوم والمنثور، معتمداً في اختياره على الاجتهاد الأدبي الدقيق بروح الأديب الفنان فكان لذوقه الدور البارز في انتقاء النصوص". (312)

وأما كتاب "الكتيبة الكامنة فمن لقيناه من شعراء المئة الثامنة"، فهو كتاب متأخر في التأليف عن كتاب الإحاطة، وهو نوع مختلف في بعض جوانبه عنه، فهو يدخل ضمن كتب الطبقات التي تختص بأهل فن واحد، وهم الشعراء؛ لأنَّ الصفة الواحدة المشتركة بينهم هي الشعر، على اختلاف هذه الشعاعية بين الفئات التي ذكرت في الكتاب، ويشير ابن الخطيب في ديباجته إلى طبيعة الأعلام المترجم لهم فيقول:

(311) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، في آثار لسان الدين بن الخطيب، ط1، (بيروت: دار المدار الإسلامي،

2001)، ج2، ص296.

(312) عبد الحليم حسين الهروط، النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، ط1، (الأردن: دار جرير، 2006)، ص125.

"فجمعت في هذا الكتاب جملة وافرة وكتيبة ظافرة ممن لقيناه في بلدنا الذي طوينا حديثه العمر في ظله، وطاردنا فنائص الأمال في حرمه وحله ما بين من تلقينا إفادته، أو أكرمنا وفادته، وبين من علمناه، وخرجناه ورشحناه ودرجناه، ومن اصطفيناه ورعيناه فما اضعناه". (313)

وهذا الكتاب من أواخر الكتب التي ألفها ابن الخطيب في آخر مشوار حياته، وقد أنجزه بحوالي سنتين قبل وفاته، حسب ما أشار إليه في مقدمته، وهو كتاب في التراجم والاختيارات الشعرية، وألفه وفي نيته تقديمه إلى أهل المشرق بين يدي قدومه إليه في غرض الحج، هذه الأمنية التي طالما راودت ابن الخطيب ولم تتحقق، إذ كان يريد تعريف أهل المشرق بشعراء أهل الأندلس من المعاصرين له، في المئة الثامنة، وثمة هدف آخر كان وراء تأليف الكتاب، وهو إعادة النظر في تراجم بعض الأشخاص من الذين أظهروا له العداوة، وقد أثنى عليهم من قبل في كتاب الإحاطة، فأراد أن ينتقم لنفسه، ويكيل لهم من الذم والشتم والخط من القدر، ما يستحقون نتيجة نكرانهم الجميل وغدرهم، من أمثال: "أبي الحسن النباهي" و"ابن زمرك" و"ابن فركون".

وقد سار ابن الخطيب وفق خطة محددة في الترجمة لأعلام هذا الكتاب، فكان يبدأ بذكر كنية المترجم له واسمه وأسماء آبائه، وما عرفوا به من النعوت، ثم يشرع في حشد أوصافه وتحليلاته بفضائله في قالب مسجوع، ثم يثبت طائفة من مقطعاته وقصائده، مغفلا نثره مراعاة لشرط عنوانه. (314)

ولم تختلف طريقة ابن الخطيب في التراجم للأعلام في كتب التراجم، من حيث المراحل العامة، في ذكر الكنية والاسم والسلف والشيوخ، والإنتاج العلمي والأدبي، غير أنه كما أسلفنا أن كتاب الإحاطة كان تراجم لأعلام يختلفون منزلة وصناعة وفضلا وعلماء ووظيفة، كما أنه قدّم من آثارهم، ومصنفاتهم العلمية والأدبية، بينما كان كتاب "الكتيبة الكامنة" مقتصرًا على شعراء المئة الثامنة، ممّن عاصروهم، وقد ركز في هذا الكتاب على الجانب الأدبي، وأطلق العنان لقلمه وأسلوبه في التصوير، والإبداع الفني، كما سمح لذوقه بحسن الاختيار وتذوق النصوص وإثارة المتعة الفنية، وإذا كان كتاب الإحاطة يغلب عليه الطابع العلمي، وكثرة المصادر وشدة التوثيق، فإن كتاب الكتيبة، تغلب عليه المسحة الجميلة وطرافة الحديث، وحسن الاختيار، وباختصار هو نموذج لمستوى الشعر الذي وصل إليه خلال القرن الثامن للهجرة.

(313) ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص 174.

(314) عبد الحليم حسين الهروط، المرجع السابق، ص 213.

مميزات التراجم الخطيبية:

إن المتأمل في تراجم ابن الخطيب، لا يسعه ألا أن يلحظ جملة من الخصائص تكاد تتميز بها تراجمه في كل مؤلفاته ومنها، الطرح العلمي الموضوعي القائم على التوثيق والتماس الدليل، والروح النقدية العالية، والذوق المتميز، والاختيار الصائب، والدقة وشدة التصوير وبراعة الوصف، والقدرة على المدح والثناء والقدرة على الذم والهجاء، والاستقصاء في النعوت وبت الحيوية والحركة، ورسم المشاهد الحية في الترجمة للأشخاص.

ويمكن تلخيص هذه الملامح كما يلي:

1- التوثيق: يعتمد ابن الخطيب إلى إحالة القارئ صراحة إلى المصادر، التي اعتمدها في نقل الأخبار، عن حياة المترجمين، وهو يجيل في كتابه الإحاطة على مصادر هامة وموثوقة منها:

- تاريخ علماء البيرة لأبي القاسم الملاحى.

- صلة الصلة لابن الزبير.

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة للمراكشى.

- المؤتمن في أبناء أبناء الزمن لابن الحاج البليقي.

- المقتبس لأبي مروان بن حيان القرطبي.

- الطالع السعيد والمرقصات والمطربات لابن سعيد.

- القلائد والمطمح لأبي نصر الفتح بن خاقان الاشبيلي.

2- سلامة الذوق وحسن الاختيار: ويستدل على سعة باع من الخطيب في هذا الجانب، تلك

النماذج والنصوص الشعرية والنثرية، التي انتقاها والتي كانت على جانب كبير من المستوى الفني

الرفيع، وهو مثلما يقول عنه الأستاذ الهروط: "وأما عن ذوق ابن الخطيب وإبداعه، فهو يتمثل في

حسن الاختيار والانتقاء، حين يذكر للأعلام أفضل ما أثر عنهم من المنظوم والمنثور، معتمدا في

اختياره على الاجتهاد الأدبي الدقيق بروح الأديب الفنان، فكان لذوقه الدور البارز في انتقاء

النصوص المختارة في غزارتها وقيمتها الفنية".⁽³¹⁵⁾

3- الحس النقدي: ويظهر ذلك عند ابن الخطيب في تراجمه من خلال جملة من الأمور، منها براعة

الاختيار، وهو اختيار لا يصدر إلا من شخص له باع في النقد، الذي يظهر من خلال الملاحظات

النقدية، وبعض الأحكام التي يصدرها، ومن خلال ترتيبه لطبقات الشعراء، في كتابه الكتيبة

⁽³¹⁵⁾ عبد الحليم حسين الهروط، المرجع نفسه، ص125.

الكامنة، فهو كان يحكم على شعر كل فئة بقلة الجودة، أو بالجودة معللا ما يذهب إليه في ذلك، فهو يرى في شعر الفقهاء، مثلا والقضاة قلة الجودة، ويُعزي ذلك لطغيان الروح العلمية على هذه الفئة؛ لأن العلمية يطغى عليها العقل والتحليل والإقناع، بينما الأدب يقوم على الخيال والتصوير والانفعالات والعواطف والألفاظ ذات الإيحاء والظلال، ومن ثمَّ كان شعر "طبقة من خدم أبواب السلاطين" أفضل من غيرها لامتهاها للشعر وإجادتها له.

4- عرض الشخصيات وبراعة التصوير: فابن الخطيب وهو يعرض شخصيات المترجمين، لا يقدمها تقديمًا علميًا ويعرضها عرضًا تاريخيًا باهتا، كما يفعل كثير من المترجمين، بل كان يضيف عليها من أسلوبه حللا قشبية، ويرسم لها صورا نابضة بالحراك والحيوية، مستقصيا كل النعوت والأوصاف، مما يجعل هذه الشخصيات واضحة، دقيقة بينة الملامح واضحة القسمات، تبرز في هيئتها الجسمانية وأحوالها الاجتماعية وأبعادها النفسية⁽³¹⁶⁾، وكمثال على ذلك نأخذ بعض النماذج من كتابه الإحاطة، والكتيبة الكامنة، فهو يترجم "محمد بن عبد الحق بن محمد بن يحيى بن عبد الحق الجذلي" في الكتاب الأول (الإحاطة): "من صدور أهل العلم والتفنن، في هذا الصقع الأندلسي، نسيح وحده في الوقار والحصافة والتزام مثلى الطريقة، جم التحصيل، سديد النظر كثير التخصص، محافظ على الرسم مقبوض العنان في التطفيف في إيجاب الحقوق لأهلها، قريب الاعتدال في معاملة أبناء جنسه، مقتصد مع ثروته، مؤثر للترتيب في كافة أمره، متوقد الفكرة مع سكون لين العريكة مع مضاء، مجموع خصال حميدة، مما يفيد التجريب والحنكة، مضطلع بصناعة العربية، حائز قصب السبق فيها، وعارف بالفروع والأحكام، مشارك في فنون من أصول، وطب، وأدب، قائم على القراءة، إمام الوثيقة، حسن الخط، ملبح السمة والشبية، عذب الفكاهة، حسن العهد، تام الرجولية".⁽³¹⁷⁾

وبهذا الاستقصاء في جوانب حياة الرجل وبهذا التدقيق في عرض سماته النفسية والاجتماعية، يبرز ابن الخطيب شخصيات تراجم هؤلاء، ولا يقف عند هذا، بل يستمر معرفا ومستقصيا، فتحدث عن نباهة هذا الرجل، وذكر شيوخه وصفاتهم وعلمهم، وظروف دخوله غرناطة، مع تحليلية هذه الترجمة بنماذج من شعره، محتتما كل ذلك بتاريخ الوفاة أولا ثم ذكر تاريخ الميلاد باليوم والشهر والسنة من التاريخ الهجري.

⁽³¹⁶⁾ ينظر: محمد مسعود جبران، المرجع السابق، ص311.

⁽³¹⁷⁾ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحق: عبد الله عنان، ط1، (القاهرة: مكتبة الخانجي)، ج1، ص80.

ولابن الخطيب ثلاث أنماط من الوصف، يضيفها على أعلامه، سماها بعض الدارسين المحدثين، لتراحم ابن الخطيب، "بالوصف بالموجب"، و"الوصف بالسالب" و"الوصف بالمغايرة". فأما الوصف بالموجب، فيقصد: إضفاء الصفات الموجبة، والفضائل والمكارم، التي ينسبها المترجم لأشخاصه، ويقصد بالسالبة: هي عكس هذه الصفات من الذم، وذكر المعاييب وخوارم المروءة والشهامة، ويقصد بالمغايرة: هي إضفاء الصفات الحميدة، والإقبال على الشخص بالمدح والثناء في مصنف، أو في ترجمة، ثم العودة مرة أخرى إلى نقض هذه الصفات بما يخالفها، وينقلها من الإيجاب إلى السلب، وقد توفرت الأنماط الثلاثة في التراجم الخطيبية، مع ميل ابن الخطيب في أكثر الأحوال إلى الوصف بالإيجاب، والثناء على الأعلام، وما ورد عكس ذلك كان لظروف، وأحوال سياسية ونفسية، أملتها أزمة ابن الخطيب مع خصومه.

وقد مرّ بنا في الوصف بالموجب نموذج سابق في ترجمة "أحمد بن عبد الحق" من الإحاطة، وأما في الوصف بالسالب، فتحدث فيه ابن الخطيب عن مثالب ومعايب بعض الأعيان، بكل موضوعية وصدق، حيث وصفهم كما عرف عنهم وشاهدتهم، فتحدث مثلا عن "علي بن يوسف بن كماشة" فقال عنه: "بذيء مهذار، قليل التصنع، بعيد عن التسمت، أطمع خلق الله، وأبخلهم بما لديه، وأبعدهم في مهايوي الخسة، أما فلسه فمخزون، وأما خوانه فمحجوب، وأما زاده فممنوع، وأما رفته فمعدوم العين والأثر، وأما ثوبه، فحبيس التخت إلى يوم القيامة"⁽³¹⁸⁾، وهذا الوصف في غاية التقريع والتنديد والذم، فقد سلب هذا الرجل من كل فضيلة، وجرده من كل نبل ومروءة، مستخدما في ذلك من الأدوات ما يجعل الرجل المترجم له موغلا في اللؤم والخساسة، موظفا في ذلك جمع التفضيل، وأسماء المفعول، تأكيدا في القدر والذم.

- الوصف بالمغايرة: وهو النمط الثالث الذي تناول به الكاتب بعض الأعلام، وهو نمط يجمع بين النمطين السابقين، بحيث يصف هذا الشخص مرة بالموجب، ثم يتبع ذلك فيقلب الموجب إلى سالب، وقد يتوهم المرء أول الأمر، أن ابن الخطيب كان متناقضا مع نفسه، يفتقد إلى الموضوعية غير أن المدرك لأسباب ذلك، قد يجد الرجل معذورا بعض الشيء، وذلك أنه لا يصف علما من الأعلام بصفتين متناقضتين في آن واحد، وإنما كان بين الوصفين مدة زمنية طويلة، ظهرت فيها مواقف وسلوكات بعض الشخصيات، واستحدثت فيها أمور لم يكن يعهدها "ابن الخطيب" فيهم، حين ترجم لهم أول مرة، ولذلك كان منطقيا أن يعيد تقديره، لبعض الأشخاص بعدما بدر منهم ما

(318) ابن الخطيب، الإحاطة، تحق: عبد الله عنان، ج 1، ص 203.

يُغيّر نظرتهم إليه، ولا ننفي عن ابن الخطيب الذاتية، ومحاولة الثأر لذاته من هؤلاء، ولكن مع ذلك نُقرّ أن هؤلاء الأعلام، الذين وصفهم بالسالب، بعدما وصفهم بالموجب، إنما كانوا طرفاً أساسياً فاعلاً في تغيير اتجاه الكاتب، وإعادة الترجمة لهم مرة أخرى، ولكن كان ابن الخطيب رغم ذلك، كان منصفاً معهم، معترفاً لهم بالشاعرية والفن، والأعلام الذين أعاد النظر فيهم هم أحبّاءهم في الماضي، أعداؤه وخصومه في آخر حياته، وهم الذين كمال لهم من المدح والثناء في كتابه "الإحاطة"، وكانوا غرضاً لسهام نقده وسخريته وذمه في كتاب "الكتيبة الكامنة"، ولناخذ مثلاً ترجمة "أبي الحسن النباهي" قاضي الجماعة بغرناطة، الذي قال فيه في الإحاطة: "هذا الفاضل قريع مجادة وجلالة وبقية تعين وأصالة، عف النشأة، طاهر الثوب، مؤثر للوقار والحشمة، ظاهر الحياء، نشأ ببلده حر الطعمة، فاضل الأثر، بعيد المدى في باب النزاهة" (319)

هذا القاضي الذي ترجم له في الإحاطة، عاد فترجم له في الكتيبة الكامنة، فقال فيه: "أطروفة الزمن وأضحوكتها .. وقرود شارذ من قرود اليمن، ذنبا وأحدقا، وفروة وأشداقا ... تشغل به الصبيان إذا بكت، وتتملح بذكره الزهاد بعدما نسكت .. لا يجلب إلى أدب يرسم، ولا لبركة تتوسم". (320)

ثم يستغرق في وصفه بأبشع النعوت، متهكما بعلمه وفقهه وقضائه، وأصله وبدأوته وحقارته.

وهكذا يصف ابن الخطيب خصومه، وأعداءه، ويخرجهم في أبشع الصور وأقبحها، ولكن هذا الوصف ليس أصيلاً في ابن الخطيب وإنما الأصل فيه، وفي أغلب تراجمه الميل إلى ذكر المحاسن والأفضال، ولكن للضرورة أحكام.

وفي الأخير يمكن القول أن هذا المقال لم يكن ليسع الحديث عن أدب التراجم، لدى ابن الخطيب، نظراً لتمييز هذا الأدب بكثرة نماذجه وطرافة مناهجه، وبراعة أسلوبه وإبداع تصويره، ودقة عرضه وعنايته بتصوير الجوانب الحسية والمعنوية والاجتماعية للشخصيات.

والتراجم عند ابن الخطيب ليست تاريخاً مجرداً ورسفاً للأحداث والمواقف، وإنما هي أدب وفن وأبداع وأصالة، ومميزات خطيبية لا تضاهي، هذه الميزات لا بد من العودة إليها وبحثها، واستجلاء خفاياها حتى تظهر بيّنة ناصعة ناجعة في عمل لاحق إن شاء الله.

(319) محمد حسين الهروط، المرجع السابق، ص 126.

(320) محمد حسين الهروط، المرجع نفسه، ص 126.